مقدمة القسم السادس : ما بعد الإمبراطورية

جين إم جاكوبس

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

في ملبورن مسقط رأسي ، أستراليا ، تصطف الخطوط الحديثة الجريئة لمتحف ملبورن الذي افتُتح مؤخرًا(2000) جنبًا إلى جنب مع الهندسة المعمارية الفيكتورية الفخورة لمبنى المعرض الملكي (1880). ويفصل بين المبنيين أكثر من قرن من الزمان ، ومن الواضح أنهما يعكسان الحساسيات المعمارية المختلفة التي تتمسك بعصرهما . ولكن الاختلاف المعماري بينهما يخفي مجموعة من القواسم المشتركة التي تخبرنا كثيرًا عن فكرة الإمبراطورية ، وخاصة كما عبرت عن نفسها من خلال الحالات المألوفة للتوسع الإمبراطوري الأوروبي من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

المعرض والمتحف مؤسسات رمزية لعصر الإمبراطورية (درايفر وجيلبرت، 1999) . كانت المعارض بمثابة عروض تقديمية تتطلع إلى المستقبل وتحتفل بالمستقبل الذي وعد به التوسع الإمبراطوري . من ناحية أخرى ، جمعت المتاحف وعرضت كل ما كان بحاجة إلى الإنقاذ في أعقاب انتشار الحضارة . في الوقت الحاضر، يضم مبنى المعرض الملكي في ملبورن مجموعة متنوعة من فعاليات العرض الاستهلاكية ، في حين يعد متحفه الجديد عامل جذب سياحي رئيسي . وهذه هي ثروات مؤسسات الإمبراطورية . ولأن متحف ملبورن ينتمي إلى فترة ما بعد الاستعمار، فإنه لم يعد قادرًا على عرض أشياء "الآخرين" بشكل مريح كما كان من الممكن أن يفعل متحف إمبراطوري .

بدلاً من ذلك ، يقوم المتحف بتنظيم القصص والأشياء التي تحركها تجارب وأجندات ما بعد الاستعمار لهؤلاء "الآخرين" . قد ينجذب الزائر لهذا المتحف ، الذي يتوق إلى رؤية شيء من "الثقافة الأصلية التقليدية" ، إلى عرض يبدو للوهلة الأولى أنه يقدم مجموعة متواضعة من الرماح . ومع ذلك ، لا يخبر العرض المشاهد بأي شيء عن "أصول" تلك الرماح بالمعنى الأنثروبولوجي . إن هذه الرماح تشكل جزءاً من عرض واعٍ بذاته يروي قصة ممارسات المتحف الإمبريالية في جمع التحف : من جمع التحف ، وكيف جمعها ، ودوائر التجارة والتبادل العابرة للحدود الوطنية التي كانت قائمة داخل المتحف (على النقيض من العالم الأصلي) .
ويعكس العرض التناقض الذي ينشأ عندما تجد مؤسسة إمبريالية ، مثل المتحف ، نفسها في أوقات ما بعد الاستعمار . وتستمد القصة التي يرويها عن جمع التحف من نوع من المنظور التحليلي الذي تم تقديمه إلى الدراسات المعاصرة في المقام الأول من خلال نقد سعيد لثقافات الإمبريالية . وتشغل الأشياء التي تشكل مركز المعرض (علماء الأنثروبولوجيا ، ومعدات جمع التحف الخاصة بهم ، والتحف التي يتاجرون بها) مساحة تحليلية تأملية ذاتية خلقتها الأنثروبولوجيا التي تشكك في سلطتها الإثنوغرافية .

إن الكثير مما يجب أن يقال عن المتحف كمؤسسة إمبريالية قد قيل من خلال هذا المعرض . ولكن ماذا عن الرماح ؟ ولكن ما الذي يجذب الزائر أولاً إلى المدار البصري لهذه القصة ؟ فبالرغم من ذكائه النقدي ، فإن هذا العرض لا يخبرنا إلا قليلاً عن تلك الرماح كونها ممتلكات أصلية . وبطبيعة الحال ، وبتسليحنا بنظرية ما بعد الاستعمار ، قد نزعم أنه لم يعد هناك شيء مثل "الأشياء الأصلية" المنفصلة ، وبالتالي لا توجد حاجة (أو طريقة) لوضع مثل هذه الأشياء بشكل أنيق في إطار أصلي . فقد نوافق ، على سبيل المثال ، على الطريقة التي يعرض بها هذا المعرض بشكل مفيد الحياة الآخرى الجامحة للأشياء الإثنوغرافية التي تم أخذها في دوائر عالمية من التجميع والاستهلاك (أبادوراي، 1996؛ توماس، 1994). ومع ذلك، بالنسبة لأولئك

الذين يستثمرون في سياسات ما بعد الاستعمار التي تحاول إعادة "الصوت" إلى المستعمر ، فإن دمج هذه الأشياء في قصة المتحف المولود من جديد قد يشعر بأنه "إسكات" مألوف للغاية .

وإذا لم تكن رسالة هذا المعرض غامضة بما فيه الكفاية ، فما علينا إلا أن نبدأ في السؤال ، كما يفعل كلايف بارنيت (1997: 139-40) بشكل مفيد ، ما الذي قد يعنيه "الصمت" بالضبط في مثل هذا السياق . هل "الصمت" المسجل حول الحياة الأصلية لهذه الأشياء هو نتيجة للضوضاء التي تحدثها مؤسسة إمبراطورية عندما تكون انعكاسية لذاتها ؟ أم أنه صمت استراتيجي ناتج عن اختيار أصلي للتوقف عن إرضاء الرومانسيات غير الأصلية حول الحياة الأصلية التقليدية ؟ هل هذه الأشياء صامتة ، أم أنها متحركة بلغة مقاومة جديدة ؟ هل هذا متحف ما بعد الاستعمار، أم أنها مؤسسة إمبراطورية عززت سلطاتها من خلال ممارسات معينة لما بعد الاستعمار ؟

قبل عقد من الزمان ، افتتحت سيندي كاتز (1992) مقالتها عن ما بعد الاستعمار والأنثروبولوجيا الجديدة والجغرافيا بقراءة لسياسات المتحف/عرض الفن . في خطوة مماثلة ، أود أن أستخدم هذا المثال لعرض متحف ما بعد الاستعمار لإلقاء الضوء بشكل واضح على مجموعة من القضايا المرتبطة بالآثار المترتبة على انعطاف ما بعد الاستعمار على تخصص الجغرافيا - وعلى وجه التحديد جغرافية الثقافة . في المقام الأول ، قد نسأل كيف تتخلص المؤسسات الإمبريالية (مثل المتحف) وأطر المعرفة (مثل الجغرافيا) من الاستعمار . ماذا تكشف أنواع الأطر التاريخية النقدية التي يجسدها عرض المتحف ما بعد الاستعماري هذا عن الماضي الإمبراطوري وما الذي تستمر في إخفائه ؟ ما مدى ضرورة ما يسمى "نظرية ما بعد الاستعمار" لمثل هذه العملية ؟ من المسؤول عن مثل هذه ، إعادة ترتيب المعرفة والسلطة ، وعلى وجه التحديد ؟ من الذي تخدمه هذه المناهج النقدية ؟ هل من الممكن كسر هياكل "الآخر" التي تميز المنطق الثقافي للإمبريالية من جميع الأنواع ؟ وهل هذا شيء يريده بالفعل هؤلاء "الآخرون" ، الذين قد يعتمد مستقبلهم بعد الاستعمار الآن على ادعاء الاختلاف "الثقافي" ؟

جغرافية ما بعد الاستعمار

بالنسبة لتخصص مثل الجغرافيا ، والذي ارتبط ماضيه ارتباطًا وثيقًا بإمبراطوريات قديمة ، فإن كيفية تحركه نحو جغرافيات تتمتع بتجميعات بديلة من القوة والفضاء ما زالت محيرة . وتوضح الفصول الاتية الطرق المتنوعة التي حاول بها الجغرافيون ، وغيرهم ممن تتقاطع اهتماماتهم مع المخاوف المكانية الصريحة لهذا التخصص ، القيام بهذه المهمة . كما نشير إلى بعض الصعوبات التي تكتنف هذا النوع من العملية بالنسبة لمجال تخصصي (وأكاديمي) يحدده تاريخه العملي والمؤسسي ، وهيمنة لغته ، وثقافة المعرفة والتقارير . وفيما يلي يجد القراء مسارات فكرية سخية من خلال هذه المنح الدراسية . وسوف يجدون أيضًا مقاييس مفيدة للحماس والتشكك في المجال الفكري لنظرية ما بعد الاستعمار التي أصبحت مركزية للغاية لمشروع إنهاء استعمار التخصص .

من الفصول الاتية يتضح أن مصطلح "**ما بعد الاستعمار**" يشير إلى أكثر من مجرد عمليات رسمية (سياسية) لإنهاء الاستعمار . وكما يظهر في مساهمة بريندا يوه ، فإن الدول ما بعد الاستعمار تظل متشابكة بشكل معقد مع ماضيها الاستعماري ، تمامًا كما قد تتفاوض على أشكال من الإمبريالية الجديدة ، أو تطلق نفسها في إمكانيات جديدة عبر وطنية . وقد دفع استمرار أشكال مختلفة من الاستعمار آن ماكلينتوك (1992: 87) إلى إصدار تحذير مفيد مفاده أن مصطلح "ما بعد الاستعمار" كان "احتفاليًا قبل الأوان" . **فالإمبريالية**

ليست شيئًا ينتمي إلى ذلك الوقت ، ولا تقتصر على تكوينات سيادية محددة ؛ ولا هي ، في هذا الصدد ، شيئًا ينتج بالضرورة وحدة جيوسياسية تسمى "الإمبراطورية" .

لاحظ جيمس سيدواي أن الجغرافيات الحالية تعرض "مجموعة من أشكال ما بعد الاستعمار "(2000 : 592.) يعمل في المقام الأول في سجل جغرافي سياسي ، ثم يقدم ملخصًا كثيفًا للأنواع المختلفة من الاستعمار الداخلي المعاصر والإمبريالية العابرة للحدود الوطنية والاستعمار المتعدد . ومن المفيد والضروري أن يتم عرض هذا النوع من التنوع . وهذا صحيح بشكل خاص عندما نفكر في الطريقة غير المتساوية التي تم بها تبني نظرية ما بعد الاستعمار من قبل الجغرافيا الأنجلوفونية - غالبًا في الوضع التاريخي ، وغالبًا في علاقة بالإمبريالية البريطانية .

في سياق هذا التنوع ، من الضروري أن نفكر في ما بعد الاستعمار كمجموعة من التأثيرات المستمرة والمنتشرة التي تنشأ جنبًا إلى جنب مع الإمبريالية من مختلف الأنواع (سواء كانت جديدة أو قديمة ، محددة إقليميًا أو منتشرة) . إن الحاجة إلى تقديم مثل هذا التوضيح حول مصطلح "ما بعد الاستعمار" هي ، بطبيعة الحال ، أحد أعراض "مرونة" المصطلح ، وبالتالي حدوده كأداة تحليلية (مور-جيلبرت، 1997: 11)، وهي مجموعة من القضايا التي تناولها أنتوني كينج بشكل شامل في فصله في هذا القسم .

ثقافات الإمبريالية

يُعَرِّف ديفيد سكوت (1999: 11) بشكل مفيد **"مساحة المشكلة"** للدراسات ما بعد الاستعمارية بأنها الافتراضات المعرفية التي تعتمد عليها النضالات المناهضة للاستعمار من مختلف الأنواع . وهذا هو السبب ، كما يزعم (1999: 18) ، في أن "الثقافة" تحتل مكانة مركزية في الإطار النقدي لنظرية ما بعد الاستعمار . ففي إطار الجغرافيا ، كان الاهتمام بـ "ثقافات الإمبريالية" إلى حد كبير استجابة للنموذج التحليلي الذي قدمه إدوارد سعيد (1978) في دراسته للاستشراق . إن مفهوم سعيد للثقافة محدد بدقة في الصفحات الأولى من كتابه "الثقافة والإمبريالية" ، حيث يستخدمه للإشارة إلى "كل تلك الممارسات ، مثل فنون الوصف ، والتواصل ، والتمثيل ، التي تتمتع باستقلال نسبي عن المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتي توجد غالبًا في أشكال جمالية "(1993.xii-xiii :) ويمضي في تحديد أن هذا يشمل "المعارف" الشعبية وكذلك المعارف المتخصصة حول أجزاء بعيدة من العالم ، وهو تعريف ذو صلة مباشرة بالفهم التقليدي للجغرافيا .

هناك الكثير مما قد نختلف عليه فيما يتعلق بتعريف سعيد للثقافة ، وليس أقلها "استقلالها" المفترض عن السياسة والاقتصاد ، أو تأكيدها على ما يعني ضمناً الثقافة "العالية" . قد نلاحظ أيضًا الطريقة التي تجنب بها سعيد بوضوح التعريفات الأنثروبولوجية للثقافة ، ربما لأنه رأى أن هذا المجال التخصصي متواطئ في اختلاق الاستشراق . لقد كان أحد أشكال مفهوم سعيد للثقافة هو الذي أثر على تيار محدد من الدراسات الجغرافية المعنية بإعادة التفكير في الإمبريالية ، وبشكل خاص الإمبرياليات الأوروبية التي اقتربت من نهايتها في منتصف القرن العشرين .

لقد وقع نهج سعيد التاريخي (والفوكوي) على أرض خصبة في مجال الجغرافيا التاريخية الفرعي (لمجموعة من الأمثلة ، ينظر جراهام ونش، 2000). يقدم الفصل الاتي الذي كتبه دان كلايتون وصفًا دقيقًا لهذا التأثير وكيف تم تعزيزه من خلال الحساسيات المكانية لسعيد . ومن خلال هذا الإطار النقدي ، قام الجغرافيون التاريخيون بتقصي خيالات الإمبريالية ومنطقها وممارساتها ، وتشخيص عنصريتها ، ورسم خرائط لأدوارها في تأطير الاختلاف ، وكشف دورها في نشر القوة الإمبريالية .

إن ما يميز هذه المنحة هو أنها تناولت "فقدان الذاكرة التاريخية" (غاندي، 1998: 7) في مجال الجغرافيا . وقد فعلت ذلك من خلال التحقيق في المعارف الجغرافية الأوروبية التي أعطت معنى للتوسعات الإمبراطورية : الجغرافيا المضاربية للمستكشفين ، ورسم الخرائط ، والنظريات العلمية للمناخ والعرق ، والمكانيات البراجماتية للحكم الاستعماري والاستيطان . وما ينشأ عن هذه المناهج التاريخية هو شعور غريب بالطرق التي تتماسك بها المنطق الثقافي غير المتجانس والمتناقض في كثير من الأحيان لإنتاج تأثيرات إمبراطورية حاسمة ومتفردة على ما يبدو . وكما لاحظ درايفر، فإن قمع مثل هذه "الاختلافات" هو "إحداث عنف ... في تاريخ اللقاء الاستعماري "(1992 :34).

ونتيجة لهذا ، فقد شرع البحث الجغرافي في تاريخ الإمبريالية بجد في مهمة إنتاج روايات تشهد على تعقيداتها وتناقضاتها . وقد أبرزت المجموعة المميزة التي أعدتها آن جودليوسكا ونيل سميث (1994) مجموعة متنوعة من الموضوعات التي تناولتها هذه الدراسة . ولا يوجد مكان آخر لديه الرغبة في تنويع فهم الإمبراطورية . لقد كانت هذه الجغرافيات أكثر وضوحًا من الجغرافيات التاريخية النسوية الحديثة . وقد أبرزت هذه الجغرافيات النساء اللواتي تشابكت حياتهن مع المشروع الذكوري لبناء الإمبراطوريات (ينظر، على سبيل المثال فقط ، بلانت، 1994؛ بلانت وروز، 1994؛ ماك إيوان، 1996؛ مورين، 1998).

إن مذكرات السفر والمجلة الشخصية هما الأرشيف الأساسي لهذه المنحة الدراسية لأن النساء في هذا الوقت كن مستبعدات إلى حد كبير من أشكال إنتاج المعرفة الرسمية والعلمية . وتُظهِر "خريطة الإمبراطورية" التي تنتجها الجغرافيات النسوية مدى التناقض الداخلي لثقافات الإمبريالية . فمن ناحية ، كانت النساء شريكات في المشروع الذكوري لبناء الإمبراطورية ، وغالبًا ما يستفدن من ناقلات الاختلاف العنصري من أجل تولي موقف التفوق الذي حُرمن منه داخل بيئاتهن الاجتماعية الأبوية . ومن ناحية أخرى ، فإن وضع المرأة في موقع هامشي في المجالات المتميزة للمعرفة والعمل المرتبطة ببناء الإمبراطورية غالبًا ما يضعها في علاقات مع المستعمرين مما أدى إلى زعزعة خطوط الاختلاف والتمييز تلك (على سبيل المثال، ليستر، 2002؛ مورين وبيرج، 2001).

إن الإرث الإجمالي لهذه الجغرافيات التاريخية لمشروع إنهاء الاستعمار في هذا المجال غير واضح إلى حد ما . لقد كان من أهم المساهمات الجماعية التي قدمتها مجموعة الجغرافيات التاريخية النقدية للإمبراطورية الإشارة إلى تعقيدات الاستعمار كونه حدثاً حياً : الغموض الذي يكتنف السلطة الاستعمارية ، ونفاذية الحدود بين المستعمر والمستعمر، وتنوع وجهات النظر حول الاختلاف والتفوق . إن هذا النوع من المراجعة التاريخية قد يخلف آثاراً استعمارية ، ولكن كما هي الحال في عرض المتحف التأملي الذاتي الذي افتتحت به هذه المقدمة الافتتاحية ، فمن الضروري أن نعرف ما قد يكون السجل السياسي لهذا التأثير . فهل تقدم مثل هذه الدراسات العلمية إزالة استعمار جذرية لهذا المجال أم أنها ببساطة لحظة علاجية تجعل الجغرافيا المعاصرة تشعر بتحسن تجاه نفسها ؟ وهل تعمل مثل هذه المراجعة النقدية على إضفاء طابع غير لائق على التفويض أو تحسين طرق المعرفة الموجودة مسبقاً في هذا المجال ؟ إن الفصول التي كتبها دان كلايتون وأنتوني كينج والتي ستلي ذلك ، تتناول هذه الأسئلة الصعبة . عند التفكير في مثل هذه الأسئلة ، قد نلاحظ انطواء مثل هذه الجغرافيات وكيف أنها تعيد انتباهنا دائمًا إلى حقول المعرفة الأوروبية ، وإلى تلك الشخصيات التي ترجمت هذه إلى طرق الاستعمار.

إنهم يعيدون تركيز أوروبا باسم نزع مركزية ذلك المكان وتلك الفكرة . وبذلك ، فإنهم يسنون نسخة محددة من العنف المعرفي الذي شخّصته سبيفاك في مقالها "هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟" .(1988) إن سؤال سبيفاك يسلط الضوء على أحد الحدود الرئيسية للعديد من الجغرافيات التاريخية النقدية للإمبريالية :

فشلها في التفسير المناسب لما كان يحدث على الجانب الآخر من الحدود وبالتالي جسر الفجوة بين الأفراد والتي تُعرف باسم "الاتصال" . إن الفصل الذي كتبه دان كلايتون يعكس ، جزئياً ، محاولاته الشجاعة لسماع "الصوت الأصلي" من خلال وجهات النظر غير المكتملة والجزئية للأرشيف الإمبراطوري الذي يؤطره . وعلى الرغم من أي أوجه قصور قد نكتشفها في الدراسات الواسعة النطاق الآن حول الجغرافيا التاريخية للإمبريالية ، فإن سؤالاً واحداً يظل قابلاً للتطبيق : هل من الممكن للجغرافيا الحديثة أن تزيل الاستعمار من ممارساتها بفعالية دون هذا النوع من دراسات المراجعة النقدية ؟ إن مثل هذه الصياغة الجديدة تشكل جزءاً من لفتة ضرورية لتطهير الفضاء . وكما زعم سميث وجودليوسكا ، "فقط من خلال الاعتراف الكامل بماضي [الجغرافيا] يمكننا أن نبدأ في فهم دور الجغرافيين في الحفاظ على نظام معين متميز للأشياء" (1994: 8).

وبصورة أكثر تفاؤلاً ، أود أن أضيف أنه فقط من خلال مثل هذه النظرة إلى الوراء قد يتطلع التخصص إلى الأمام لتخيل جغرافيات بديلة (ما بعد الاستعمار). وكما يزعم الفصل الذي سيلي ذلك من كتاب كلايتون ، فإن هذه الجغرافيات البديلة ، أياً كان شكلها ، لا يمكن أن تكون خارج التاريخ (والهياكل التاريخية وأساليب التمثيل) للجغرافيات التي سبقتها . وهذا لا يعني أن المعارف الجغرافية لا يمكن تجديدها "من وإلى الهامش" في مشروع يصفه ديبيش تشاكرابورتي (2000: 16) بأنه "إقليمي" . وهذه هي المهمة التي يجب أن يتولى الجغرافي تنفيذها الآن .

الجغرافيات الثقافية لما بعد الاستعمار؟

لقد عمل العديد من الجغرافيين ، لبعض الوقت ، في إطار أخلاقي وسياسي بأهداف معادية للاستعمار . وبهذا المعنى ، كان علم الجغرافيا يفرض نفسه على المستوى الإقليمي لبعض الوقت ومن خلال وجهات نظر نظرية أخرى غير تلك التي قدمها إطار نظرية ما بعد الاستعمار . من الواضح أننا قد نفكر في "جغرافيات التنمية" الراديكالية (أي ما بعد التنمية) كما وردت جزئيًا في القسم 7 من هذا المجلد ، الذي حررته جينيفر روبنسون . وقد نفكر أيضًا في العمل الذي تم من خلال إطار جغرافيات العرق والعنصرية . في كل من جغرافيات التنمية وجغرافيات العنصرية ، أثارت بعض الخيوط النقدية شكوكًا ذات صلة حول مصطلح "الثقافة" ذاته الذي يبدو الآن أنه مركزي للغاية في الجغرافيات ما بعد الاستعمار الناشئة . هذه شكوك نحتاج إلى أن نظل مدركين لها حتى لو كانت مفاهيم الثقافة في قلب الجغرافيات ما بعد الاستعمار الحالية مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت نشطة في أوقات سابقة .

على سبيل المثال ، تضمن نقد جيمس بلاوت المستمر (1992؛ 1993) للمركزية الأوروبية وصفًا للطريقة التي حلت بها "العنصرية الثقافية" محل "العنصرية البيولوجية" . ولقد زعم أن هذه العنصرية أدت إلى إطالة عمر افتراضات التفوق الأوروبية من خلال استبدال النظريات العلمية حول الطابع العنصري المحدد بيئيًا بمزاعم حول ما يسمى "تفرد" "العقلية والثقافة" الأوروبية (1992: 294) . وعلاوة على ذلك ، يزعم أن "العنصرية الثقافية" كانت بمثابة الأساس الذي بنيت عليه نظرية التحديث في القرن العشرين ، وهي النظرية التي شرعت في حد ذاتها فترة جديدة تمامًا من التدخل الغربي في الأماكن التي تعد أقل تطورًا . ومن الواضح أن الجغرافيين بحاجة إلى وضع تاريخ دقيق لكيفية استخدامهم وتفسيرهم لمفهوم مثل "الثقافة" ولا سيما في مشروع جعل هذا التخصص على دراية بتعاطفه مع الإمبراطورية .

وقد يتم التعبير عن تحفظات مماثلة فيما يتعلق بمفهوم الثقافة الذي اعتمدت عليه جغرافية الثقافة الساويرية . وقد أعيد تنشيط هذا السؤال الغامض مؤخرًا في أعقاب مزاعم مفادها أن "التقاليد الساويرية" المنقحة قد توفر نموذجًا لجغرافية الثقافة الخالية من الاستعمار . ويتاح ساور للمشاركة في هذا المشروع

التعافيي جزئيًا لأن اعترافه بأساليب الحياة والمظاهر الطبيعية قبل الاستعمار يوفر نقطة مقابلة مهمة للافتراضات الاستعمارية حول كون الأراضي المستعمرة "نقية" أو "خالية" (سلوتر، 1997: 701). وقد حاول بعض هذا العمل تقديم إعادة تفسير "ما بعد الاستعمار" للمظاهر الطبيعية المعاصرة على أساس أنها قبل الاستعمار شكلت حرفيًا ، وما تزال تسكن ، المظاهر الطبيعية الاستعمارية التي تلت ذلك (سلوتر، 1999؛ 2001).

لا شك أن المشروع الفكري الذي تبناه ساور كان ضد الحداثة وأشكال التدمير المختلفة (للثقافات والطبائع) التي شعر أنها أحدثتها . وكما أوضح سولوت (1986)، فإن كورولوجيا المناطق الثقافية التي تبناها ساور كانت ضد أنواع الأطر التطورية للتنمية البشرية التي شرعت مهمة أوروبا في تقديم "الحضارة" إلى "ثقافات" أخرى . وتماشياً مع المراجعات التي أجراها فرانز بواس على التفكير الأنثروبولوجي حول الثقافة ، فإن مفهوم ساور عن "المنطقة الثقافية" كان بمثابة نقطة انحرفت عندها تخصصات الجغرافيا عن النظريات "العلمية" للمناخ والعرق التي كانت تشكل سمة من سمات جغرافيات الإمبراطورية . ومع ذلك ، فليس من الواضح دائماً أن نهج ساور في المناطق الثقافية كان خارجاً تماماً عن بعض الافتراضات التنموية للتطور . ورغم أن اهتمامه بالتغيير الثقافي لم يكن محددًا بأي "قانون عام للتقدم" ، فإنه ما زال يعترف بوجود "ثقافات تقدمية وثقافات أخرى لا تظهر أي علامة تقريبًا على التغيير" (سولوت، 1986: 515) . باختصار، في عمل ساور، فإن الحدود بين ما قد نعده منظورًا إمبرياليًا واضحًا، ومتطورًا (الذي رأى أن حاضر الثقافات الأخرى هو ماضي أوروبا) والنسبية المتزامنة التي تبدو ما بعد الإمبريالية (والتي تعني التزامن والخصوصية) ليست واضحة دائمًا .

قبل تبني المناهج الساويرية في مراجعة جغرافية الثقافة وإزالة الاستعمار منها ، هناك حاجة إلى نوع آخر من الإيماءات التاريخية لتطهير الفضاء . وهذا يستلزم التساؤل عن أنواع التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي خلفتها جغرافيات "المنطقة الثقافية" على العلاقات بين هؤلاء الأشخاص الذين تم تعريف "حضورهم" من خلال "الثقافة" (وبشكل خاص التحف الثقافية) والجغرافيين الذين حظوا بامتياز القيام بهذا التعريف . مثل هذا المشروع يتماشى مع اقتراح بارنيت بأن "التحول الثقافي" في التخصص يجب أن يأخذ في الحسبان "تشكيلات الثقافة في المواقف المؤسسية المختلفة و... الأشكال المميزة للتنظيم الاجتماعي" (1998: 622-3).

على سبيل المثال ، في حين ساعد مفهوم "المنطقة الثقافية" في دحض إن الحسابات التطورية لأساليب الحياة المختلفة (أي أنها عملت ضد أطر المعرفة الإمبريالية) ، كانت هذه الفكرة ذاتها هي الأداة المستخدمة في تصنيف المجموعات الإثنوغرافية حسب المتاحف (أي أنها عملت كإطار معرفي إمبريالي). وببساطة ، فإن حقول المعرفة التي تفهم "الثقافات" الأخرى من خلال نموذج نسبي (على عكس النموذج التطوري) لم تكن تقع تلقائيًا خارج المنطق الاستعماري . وكما يشير باتريك وولف (1999 :55) فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا ، فإن النسبية الثقافية كانت لها قيمة جيوسياسية محددة لتعزيز السلطة في مجتمعات المستوطنين الاستعماريين المتأخرة . ويشير بروس براون (ويلمز-براون، 1997: 705) إلى هذه القضية عندما يزعم أنه ما يزال من غير الواضح نوع العلاقة التي كانت تربط إعادة بناء ساور الحنينية والرومانسية لثقافات ما قبل الاتصال بالسياسات المعاصرة للأرض في أمريكا اللاتينية .

بطبيعة الحال ، من المهم أن نعترف بأن الشعوب المستعمرة التي تشارك في نضالات ما بعد الاستعمار المعاصرة لديها حنينها الخاص الذي يشكل إطار "الثقافة" فيه غالبًا محورًا مركزيًا . لقد اكتسبت "الثقافة" و"الاختلاف الثقافي" شرعية جديدة في حكم العديد من الدول التي تتخيل نفسها على أنها ما بعد استعمار و/أو

متعددة الثقافات . وفي ظل هذه الظروف ، تعتمد قدرة المجموعات المهمشة على حشد شكل من أشكال الاعتراف (والفائدة المادية) بالكامل على تلبية احتياجاتها وتطلعاتها من خلال "الاختلاف الثقافي" . إن جغرافيات الثقافة على النمط السويري قد تقدم "أدوات مفيدة لسياسات إنهاء الاستعمار" في مثل هذه السياقات (1997: 705).

على سبيل المثال ، يمكن للجغرافيا التي تنتبه إلى التراكمات المضمنة والارتباطات المستمرة (والقابلة للتعديل) بين الأرض والحياة أن تقدم أدلة ضرورية للغاية للحكم على الحقوق السابقة للشعوب الأصلية (ينظر، على سبيل المثال، بيكر، 1999). في مثل هذه السياقات ، يمكن استخدام المفاهيم الجوهرية للثقافة التي تظل مرتبطة بمثل هذه الجغرافيات بشكل استراتيجي . ما إذا كانت مثل هذه الجغرافيات جذرية أو رجعية في تأثيراتها - وهنا قد نقارن سياق حقوق الأرض الذي ذكرته للتو مع أنواع معينة من القوميات والإقليمية الحصرية - تظل مسألة مفتوحة ، وليست دائمًا مسألة خاضعة لسيطرة هؤلاء العلماء الذين ينتجون هذه الجغرافيات .

وتضيف بريندا يوه أفكارا حول عمل الذاكرة ما بعد الاستعمار في الفصل التالي إلى تساؤلاتنا حول مفهوم "الجوهرية الاستراتيجية" (ينظر أيضًا جاكسون وبينروز، 1993؛ جاكوبس، 1996؛ بينروز، 1995). وهي توضح كيف أن الحاضر في أماكن مثل سنغافورة لا يُعرَّف ببساطة بالماضي الاستعماري أو ضده . **إن الهوية المعاصرة في سنغافورة تتكون من مزيج معقد من الهجرة والاستقرار اللذين سبقا الاستعمار الأوروبي وإزالة الاستعمار بعده** . إن ما يمثل "التقليد السنغافوري" في مثل هذه المساحة الهجينة معقد بالضرورة . وبالتالي ، فإن أي جهد لاستعادة الماضي للأمة الحالية له سياساته الداخلية الخاصة به والتي تتدافع فيها مجموعات فرعية مختلفة من المستعمرين للحصول على الاعتراف بتقاليدهم والموافقة عليها من قبل الدولة .

يوحي فصل يوه بضرورة التفكير خارج الحسابات الساخرة لـ "التراث" و"الحنين" التي نشأت في جغرافية الثقافة (وأماكن أخرى) في الثمانينيات . ففي بيئات مثل سنغافورة ، تعني الاضطرابات التي تنشأ عن الاستعمار والعولمة الوطنية المعاصرة أن الحنين إلى الماضي ليس مجرد شوق إلى شيء ضائع . إن صنع التراث وإعادة تمثيل التقاليد يمكن أن يكون أيضًا ما تشير إليه ديبورا باتاليا كونه "وسيلة [معرفة] ذاتية" (1995: 77)، وهي وسيلة يستمر بها الأشخاص الذين يشغلون مواقع متعددة في الثقافة والتاريخ في معرفة أنفسهم . وقد أصبحت مثل هذه الأسئلة المتعلقة بالهوية محورية لتقصيات جغرافية الثقافة في ظروف ما بعد الاستعمار .

إن أحد الأمثلة الجيدة على ذلك هو البحث الذي أجرته ريتشا ناجار (1997) مع مجتمعات جنوب آسيا في تنزانيا ، والذي يُظهر أن نماذج الهوية التبسيطية التي تقتصر على بنية "المستعمر" و"المستعمر" لم تعد كافية . ويوسع الفصل الذي كتبه يوه بعد ذلك نطاق هذه الدراسة . ففي المقام الأول ، يحدد بشكل مفيد مفهوم "الثقافة" الذي يبرز الدراسة حول الهوية ، ضمن إطار أكاديمي مرتبط بالأدوات التحليلية التي توفرها الدراسات الثقافية . وفي المقام الثاني ، يُظهِر، من خلال حالة سنغافورة ، كيف يتم هيكلة أسئلة الهوية من خلال تقاطعات معقدة لمحاور الاختلاف المتنوعة . ويزعم أرجون أبادوراي (2000) أن إعادة إنتاج المنطق الثنائي بشكل تبسيطي غير مفيدة في التفكير في الثقافة في الأوقات المعاصرة . وهو يشك بشكل خاص في نظريات العولمة التي يزعم أنها تفترض وجود شكل من أشكال "جغرافية السمات" من أجل تحديد ما إذا كانت هذه النظريات ستؤثر على العالم أم لا . إن هذا الكتاب يشرح لنا كيف يمكن للقوى العالمية أن تتحكم في حياة الناس والأماكن التي يتم تصوير حياتهم وكأنها محكومة بقوى عالمية . وبدلاً من ذلك ، يقترح أبادوراي

"جغرافيات العمليات" التي من شأنها أن "تسمي وتحلل... الأشكال المدنية المتنقلة" وترسم "أنواعًا مختلفة من الفعل والتفاعل والحركة "(2000 :7)

ويوضح فصل يوه أن الدول التي تتقاطع فيها تدفقات الناس عبر الوطنية يمكنها استخدام هذه الحركة كشيء يمكن من خلاله تصور أمن (وحدود) الأمة ، أحيانًا بسعادة من خلال إطار التعددية الثقافية ، وأحيانًا بقلق من خلال إطار كراهية الأجانب . بالنسبة ليوه ، فإن مثل هذه المساحات الشتاتية والهجينة هي في الواقع عدائية ، وتثير أشكالاً جديدة محيرة من العنصرية ومستويات جديدة من الانعكاس الذاتي . وكما تشير كاي أندرسون (2000)، فإن التحدي الذي يواجه الجغرافيا المعاصرة هو إعطاء ملامح تحليلية لهذه الأنواع من العمليات العابرة للحدود الوطنية والمساحات الاجتماعية التي تنتجها . وفي البحث عن الأدوات التي يمكن من خلالها إجراء مثل هذه الجغرافيا ، من الأهمية بمكان ألا تكتفي دراساتنا العلمية كون مفهوم الثقافة مفهوماً مفروغاً منه . وكما حاولت هذه الافتتاحية أن تظهر، فإن الطريقة التي نتصور بها الثقافة ليست أمراً مسلماً به ، وفي الواقع ، فإن مسألة كيفية تصورها تشكل جوهر إمكانات دراساتنا العلمية في مرحلة ما بعد الاستعمار.

اسمحوا لي أن أنهي هذا المقال بعرض بعض الأفكار حول سياسات إجراء جغرافيات الثقافة "بعد الإمبراطورية" . إن تقليص المراجعة إلى موضوعات البحث من شأنه أن يحد من احتمالات حدوث تحول جذري في سياسات مجال المعرفة في هذا المجال . كما أن إزالة الاستعمار من هذا المجال يرتبط أيضًا بأساليب البحث والتمثيل . ولست أقترح ببساطة استبدال الاهتمام بـ "الخطاب" بجغرافيات أكثر مادية ــ أو التخلي عن الأرشيف الإمبراطوري لصالح الإثنوغرافيا ما بعد الاستعمارية (ينظر هانسن وستيبوتات، 2001). إن الإثنوغرافيا الخاصة بالتكوينات ما بعد الاستعمار قد تعاني من إغفالاتها وحذفها . ولا يوجد مكان أكثر وضوحًا من التفكير في فئات الهوية والعمليات التي ترتبط بشيء يسمى "المقاومة" .

على سبيل المثال ، زعم ديفيد سلاتر (1998) فيما يتعلق بالنضالات الأصلية ضد الاستعمار الداخلي في أميركا الوسطى والجنوبية أن فكرة "الأصليين" تُستخدم غالبًا بطريقة تخفي االتباين دخل مثل هذه الفئة . وهذا هو إصدار لما قد تصفه شيري أورتنر بأنه "إذابة الذات ... في مجموعة من "تأثيرات الذات"" (1995: 183). تقدم أورتنر اعتبارًا وثيق الصلة بكيفية البحث في المقاومة وتمثيلها . وتزعم أنه كان هناك دافع رومانسي لـ "تطهير السياسة الداخلية للمهيمن" وتسمي هذا شكلًا من أشكال "الرفض الإثنوغرافي" (1995: 179). وتخلص إلى أن التغاضي عن السياسة السابقة والمستمرة بين الخاضعين يؤدي إلى فهم فقير للمقاومة نفسها . قد نضيف إلى هذه الملاحظة مواصفات أخرى تعيدنا إلى إشكالية "الثقافة" ذاتها . فعندما نفهم المقاومة على أنها تعمل في إطار منطق "الثقافة" ، فماذا يعني ذلك على وجه التحديد ؟ وكما تساءل بارنيت (1998) باستفزاز : ما هو مفهوم "الثقافة" الذي يتم تنشيطه في المناطق الجغرافية التي تزعم أنها ترسم "السياسات الثقافية" للمقاومة ؟

عندما نفكر في الكيفية التي قد تتصرف بها جغرافية الثقافة في مرحلة ما بعد الاستعمار، فإننا بحاجة إلى أن ننتبه إلى أنفسنا كوننا "فاعلين في مواقع محددة منخرطين في العمل السياسي المتمثل في التمثيل وإنتاج المعرفة" (كاتز، 1992: 496). وفي هذا الصدد ، قد يكون للممارسة الجغرافية الخالية من الاستعمار تمامًا علاقة بأشكال التمثيل الخاصة بنا كما لها علاقة بما بعد الاستعمار لنظرياتنا . على سبيل المثال ، اقترح كرانج (1992) أن يقوم الجغرافيون ببناء جغرافيات أكثر "تعددًا للأصوات" كوسيلة لإعادة تشكيل السلطة الأكاديمية فيما يتعلق بـ "موضوعات البحث" (ينظر، على سبيل المثال، هوجينز وآخرون، 1995).

تكشف تأملات كاتز الخاصة حول تجربتها الميدانية في السودان أنه لا النظرية ولا استراتيجية الكتابة وحدها يمكن أن تبني عملية بحث خالية من الاستعمار تمامًا . وكما تشير كاتز، فإنها كانت ، بعد كل شيء،

"الشخص الذي يحدد تضاريس الأسئلة ويبحث عن الإضاءة في ممارسات الآخرين" (1992: 502). وهناك بعض علامات التفاؤل ، وهنا أفكر في البحث العملي الذي أجراه ريتشارد هاويت (1998؛ هاويت وجاكسون، 1998) حيث يتم تحديد أسئلة البحث بالتعاون مع المجتمعات الأصلية التي يعمل معها . ولكن هناك أيضًا أسباب وجيهة للبقاء متشككين في قدرة التخصص على الانتقال بشكل كامل من أطر المعرفة والقوة التي ورثتها فكرة الإمبراطورية . على سبيل المثال ، يقدم الفصل الاتي الذي كتبه توني كينج تذكيرًا صادمًا بأن إنهاء استعمار مجال تخصصي يتطلب إعادة تشكيل بنية الأكاديمية نفسها : من يتم توظيفه ، ومن يحق له التحدث ، وبأي لغات يتحدث المرء (حرفيًا ونظريًا) ، وبالطبع ، من يهتم بالاستماع . كما حاولت أن أثبت في روايتي لمعرض المتحف ما بعد الاستعماري الذي افتتحته ، حتى عندما نتصرف بشكل مختلف حول موضوع "الثقافة" ، لا يمكننا أن نكون متأكدين مما إذا كانت تأثيرات الجغرافيات التي ننتجها ستكون ما بعد استعمار كما قد نرغب .